على يد أخيه والقائم على تربيته العلامة جمال الدين القاسمي. فجمع الخيرين وفاز بنصرين، مع ما وهبه الله من فطنة وذكاء حاد وقريحة شعرية متميزة، وصبر وجلد قويين، كانت الانظار متجهة اليه، قد علّقت به آمالا كبيرة آمال امة في مفترق طرق على حد سواء، لكن المنية اليه اسرع من رؤية البصر، فقد لقي ربه اثر الم في الكبد اصابه وهو في مدينة الطائف يعمل طبيبا سنة ١٣٣٤هـ..

لقد وقفت على مقالاته التي جمعها ابن اخيه الدكتور مُسلّم القاسمي، وقام بطبعها الشيخ محب الدين الخطيب في مطبعته السلفية بمصر في سنة ١٣٧٩هـ بعنوان «صفحات من تاريخ النهضة العربية في أوائل القرن العشرين» فرأيت فيها مقالا بعنوان: «الحشوية والوهابية» انصف فيه واجاد، وبلغ الغاية في توضيح الحق المراد، وليس من عجب ان يكتب هذا الشاب الألمعي ما كتب، فهو سليل بيت علم معروف بالسنة، مشتهر بتحقيق المتابعة والبراءة من رق التعصب والعنصريات، إنه بيت القاسمي في دمشق، الذي تاجه وفخره العلامة الكبير جمال الدين القاسمي السلفي، وهو اخو صاحبنا الدكتور صلاح الدين، والقائم على تربيته بعد وفاة والده وهو في السنة الثانية عشرة من عمره.

هذا المقال البديع هاجم فيه الحشوية وانتصر فيه لدعوة الحق دعوة الشيخ الامام محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه الله تعالى ـ ومصطلح الحشوية هنا معناه: المناهضون للمصلحين. قال الكاتب: وهم اليوم ضروب: فمنهم حشوية الدين، وحشوية العلم، وحشوية السياسة، ولشدّ ما لقي المصلحون من شيوخ السوء حشوية الدين الجامدين، في سبيل الدعوة الى الحق، وما نالهم من النكبات ماديا وادبيا ١٠هـ ثم يخص الكاتب حشوية بلده فيقول: كما هو الحال الآن في حشوية الدماشقة، ورميهم علماءهم الاطهار، واحرارهم الاخيار، بالوهبنة تارة، والزندقة تارة أخرى.

الا وان التاريخ يعيدُ نفسه، فقد مثّل لنا رمي هؤلاء الحشوية للمصلحين بالوهابية رمى الروافض لأهل السنة بالنواصب، وتسمية القدرية لهم بالمجبرة وتسمية الجهمية لهم بالمجسمة والمشبهة.

على أن هذه الأقاويل لا تغمط من قدرهم، ولا تحط من علمهم شيئا، بل على العكس من ذلك، فانها قد تكون واسطة لرفعة شأنهم وتألق شهرتهم..

انه لا يسوغ الاعتماد في مثل هذه الحال على تقوّل الخراصين من اولئك الطغام الحشوية.. اذ لو اخذنا القول على عواهنه كما يلقى على مسامعنا جزافا دون بحث ولا ذلك لمعرفة حقيقتهم تمام المعرفة، بل يجب أن نستقرئ حركاتهم ايام حياتهم استقراء عاليا دقيقا، ثم بعد ذلك يخول لنا ان نحكم عليهم بعد ان كنا تصورناهم حق التصوير، فان وجدناهم طبق ما يقال عنهم قبلناه وحولنا مجرى افكارنا، والا رفتناه بأخمص اقدامنا وضربنا به عرض الحائط.

ومما يجري هذا المجرى وتجدر العناية به واعطاؤه جانبا من التمحيص والتدقيق مسألة (الوهابية) التي طار في عامة الاقطار نبأها، واستلمت زمامها (الحشوية) فأصبحت تديرها ماشاءت وشاء لها الهوى، حتى غمض الحق على طالبيه، فذهب بين جهل شيوخ السوء واغراض اعداء التجديد.

وما كان أحرى بهؤلاء ان لا يخوضوا في هذه المسألة، فقد آل نبأ الوهابية الى أن صار سمرا وفكاهات. ومن ذلك: ان كل من روى من المدرسين أو الخطباء احاديث الشرك جليا او خفيا، يتناجون بانه يرمز للوهبنة، ويسمونه (وهابيا) مع ان زعيمهم يدعى (محمد بن عبدالوهاب) فكان الاجدر تسميتهم (مجمدية) وهكذا الحال الآن، فلا تسمع في المنتديات ـ عامة كانت او خاصة ـ الا الوهابية والوهبنة لكل من انكر منكرا، او ناقش في امر او بحث في مسألة.. وقد عرف الجميع سر المسألة، بل انقلب الأمر على القائمين على الوهابية، وانعكست القضية، اذ زرعوا في اذهان العامة من الرجال والنساء مُنْفرداتهم وما يؤثر عنهم، واصبح كثير من الناس يدقق في تلك المسائل ويلهج بها، ويسأل عنها النبهاء المنوّرين ليصل الى أصلها، وكثير من أولى السذاجة والفطرة توهبن بفضل تلك الثورة التي هاج ثائرها منذ عهد غير بعيد..

قالوا: «الحقيقة بنت البحث» نعم، هذا ما حدا بي الى أن آتى في هذه العجالة على نتف من حقيقة أمر هؤلاء الوهابية، ليتبين الرشد من الغي، ويعلم اولئك الموهون ان للحق انصارا، وان التاريخ لا يترك كبيرة ولا صغيرة الا احصاها .١هـ

ثم بعد هذا المدخل الجميل من الكاتب بدأ في الحديث عن دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب وبيان محاسنها، فيقول:

وبعد فمن هم اولئك الذين يفترى عليهم ما يفترى؟

هم اولئك الطائفة من الحنابلة التي تتمذهب بمذهب الامام احمد وعقيدته لم يخرجوا عنها قيد شبر، وهم يتبرأون من الشرك الجلي والخفي الذي حذر منه النبي ﷺ.. هم اولئك الذين يقدمون أحاديث النبي ﷺ وآثار الصحابة على غيرها، ومذهبهم في صفاته تعالى مذهب السلف: لا تشبيه، ولا تعطيل (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) هم اولئك الذين على مذهب أهل مشرب السلف الصالح، ولا هم لعلمائهم الا البحث في الاصول وفي الفروع، ولا لعامتهم الا السعي وراء الاكتساب والاتجار..

وهم لا يأكلون لحم أخ بغيبة، ولايمشون بنميمة، ولا تبدر على اسلات ألسنتهم بوادر القذف، ولا يسلمون لأنفسهم العنان فينهمكون في الفحش والموبقات.

وهم ليسوا بثعالب رواغة يمكرون او يخدعون.

وهم احرار جادون في طلب العلم اينما حلوا وحيثما وجدوا وانك لا تراهم مرة لاعبين او عابثين. وهم يفرون من البدع فرارهم من المجذوم.

وبالجملة فماذا يقال عن اخلاص قوم عرفوا بالتمسك بالاسلام، وهم في مقدمة كل طوائفه ايمانا وايقانا.

ويرحم الله أحد الافاضل حيث قال:

(لو تجسم الاسلام بانسان لكان أهل نجد رأسه).

هذا ما نعرفه عنهم كما دلتنا عليهم مصنفاتهم التي ألفها اهل الرأي الراجح والعلم الصحيح منهم، وكما رأينا ذلك في غير واحد من التواريخ التي تبين سيرتهم احسن تبيان، كتاريخ «الجبرتي» وغيره.

ليت شعري بم يجيب ذلك المعاند الذي يرميهم بانواع الكفر والضلال اذ قلت بانهم يقيمون الصلوات الخمس بأوقاتها ويؤدون زكاة اموالهم بأنصابها، وانهم يصومون شهر رمضان، ويزورون البيت الحرام على اذا رفعت عقيرتي قائلا: انهم فئة يكدون ويكدحون في جهاد هذه الحياة، ويفارقون الاهل والاوطان ابتغاء النفع والانتفاع والكسب من الحلال، فيتجرون بالعقود المشروعة ولا يتحيلون لشبهاتها، بل لا يرضون ان يعيشوا عيشة الأذلاء الانذال كَلاً على غيرهم..

ولقد علم قيامهم بشعائر الدين في حلهم وترحالهم، وتصلبهم في ذلك، والتورع في معاملاتهم كل من خبرهم، كما عرف ذلك منهم معاملوهم من التجار في كل قطر ومصر.

ثم تحدث الكاتب عن بعض المسائل الاجتهادية وان الخلاف فيها بين اهل الاسلام قائم، وان الشيخ محمد بن عبدالوهاب ما اتى بشيء من عنده، وانما دعا الى نصوص ظفر بها وعثر عليها وهي لمن تقدمه من الأئمة المشاهير ممن سبقوا عصره بنحو ستمائة سنة. ثم ختم حديثه بقوله:

وبعد فلسنا نقول ذلك تشيعا او تحزبا، فان ذلك من شأن المتعصبين الجامدين، بل دلالة على مكان المدح، وحذرا من بخس الناس اشياءهم، واستبراء للدين من قذف البريء وبهت المؤمن، وفي ذلك عبرة لقوم يذكرون.

نقلت لك ايها القارئ الموفق جملا جميلة من مقال الدكتور صلاح الدين والذي هو بعنوان «الحشوية والوهابية»..

والآن اجدني اكمل لك الفائدة بتعليقات فيها اشادات بمزايا المقال، واضاءات على أهم ما فيه من الفوائد الفرائد، موضحا ما يحتاج الى الخصوم لا اقرارا لهذه التسمية، ولهذا فانه اشار الى ملحظ مهم، حيث قال: فكان الاجدر تسميتهم «محمدية» نسبة الى الشيخ محمد بن عبدالوهاب.

وعلى كل حال فان الخصوم انما يطلقون هذا اللقب على دعوة الحق ليوهموا عوام الناس أن الشيخ محمد اتى بمذهب جديد، او رأي لم يسبق اليه، وليس كذلك الامر ولهذا قال الكاتب ـ رحمه الله ـ والحق يقال ان محمد بن عبدالوهاب لم يأت بشيء من عنده، وانما دعا الى نصوص هي لمن تقدمه من الأئمة المشاهير.

٢ ـ افاد الكاتب ـ رحمه الله تعالى ـ ان مريد الحق وطالب الانصاف في شأن دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب عليه ان يقرأ ما كتبه شيخ الفقهاء الحنفية بمصر المؤرخ الشهير الامام الجبرتي، بل قال: وحرام على من لم يراجع تاريخ الجبرتي في شأنهم ان يبهتهم رجما بالغيب، ماكان الجبرتي وهابيا ولا نجديا ولا حنبليا، وانما كان حنفيا، بل مفتي الحنفية في مصر في عهد محمد علي باشا الذي حاربهم ١٠هـ

قلت: هذا تنبيه نبيه، حيث إن تزكية الجبرتي ـ رحمه الله تعالى ـ جاءت خلال حديثه عن الحروب بين محمد علي والدرعية، فكانت تزكية زكية، الانصاف فيها ظاهر، اذ دواعي ذمهم متوافرة، فكانت ديانة الجبرتي مانعة له من تغيير الحقائق. وقد كان تنبيه الكاتب ـ رحمه الله محل قبول، ولهذا جاء من العلماء وغيرهم من لخص ماكتبه الجبرتي في ذلك، وجمعه في نسق واحد بعد ان كان متفرقا في ثنايا تاريخ الجبرتي، من اولئك الشيخ عبدالله بن محمد بن حميد رئيس المجلس الأعلى للقضاء ـ رحمه الله تعالى ـ حيث جمع ذلك في عشر ورقات، طبعت ضمن «المجموعة المحمودية» بمطبعة المدني بمصر، ثم كتب الاستاذ محمد اديب غالب كتابا بعنوان «من اخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي» طبع بدار اليمامة بالرياض.

٣ ـ مدح الكاتب ـ رحمه الله تعالى موقف علماء الازهر من كتاب تاريخ الجبرتي، حيث قال: ولأن العلماء في الأزهر أئمة فضلاء يذعنون للحق وينقادون له، وهم يرون أمثال ماينشره الجبرتي عنهم حقائق لا تشوبها شائبة وهَم ولا ابهام.١هـ قلت: لم يعرف من متقدمي الازاهرة ـ رحمهم الله تعالى ـ انتقاد الدعوة على رغم ان الحرب العسكرية بدأت من بلادهم، وانما تكلم بالاثم بعض المتأخرين كالدجوي ـ المتوفى في سنة ١٣٦٥هـ ولقد لقي انتقادات من بعض علماء مصر المشهورين كالشيخ محمد رشيد رضا، وغيره.

٤ ـ وصف الكاتب ـ رحمه الله ـ اهل الجميع ـ رأى عجبا في الهمم العالية والاطلاع الواسع والتفرغ للعلم تعلما وتعليما، ولذا لم يذكر عن أحد منهم انه ترك مالا وفيرا.

ب ـ أما العامة فقد وصفهم بالسعي وراء التجارة والاكتساب، بالعقود المشروعة، وانهم بعيدون كل البعد عن المكاسب المشبوهة فضلا عن المحرمة، ودافعهم لذلك الاستغناء عن الناس، كما قال الكاتب: ولا يرضون أن يعيشوا عيشة الأذلاء الانذال كَلاً على غيرهم.

جـ ـ نقل الكاتب عبارة عن أحد الفضلاء لم يسمه لنا، فيها انصاف لأهلنا الأوائل وهي حق والله، انقلها لعل شباب اليوم وابناء زماننا يتأثرون بها، فيشابهوا آباءهم، قال:

ويرحم الله أحد الافاضل حيث قال: «لو تجسم الاسلام بانسان لكان أهل نجد رأسه».

د ـ وصف اخلاقهم فأحسن ـ احسن الله اليه ـ حيث اشاد بتحليهم بخلق الاسلام وابتعادهم عن سفساف الاخلاق ورديئها، ووصفهم بالجد والبعد عن العبث، ومن جميل قوله عنهم: وهم ليسوا بثعالب رواغة يمكرون او يخدعون، وفي ذلك اشارة الى صدقهم وصراحتهم المتميزة.

٥ ـ كتب الكاتب كل ذلك ابتغاء وجه الله وصدقا، حيث لا وجود آنذاك للدوافع المادية ونحوها، فقد كتب ما كتبه ومازالت دولة التوحيد الثالثة في بدايات التأسيس، بل دوافع ترك انصاف دعوة الشيخ محمد أكثر، لأن ضرر المنصف انذاك كبير، فاللوم والعتب والتشهير والايذاء هو ما سيواجهه في الغالب.

اذن: فالحق هو الذي تجتمع عليه قلوب المؤمنين في نجد او في الهند أو في اي بقعة من بقاع الدنيا، فلا نظر الى الألوان او البلدان او القبائل، بل النظر الى الصدق والاخلاص لله تعالى وصحة المعتقد. والا فما دافع الكاتب وهو شامي ان يدافع عن نجدي وهو لم يزر نجدا ابدا، ولم يكن تحت ولايتها، صدق الله اذ يقول ﴿ولكن الله ألف بينهم﴾.

٦ ـ لم ألق الضوء على هذا المقال انطلاقا من حب المدح.. بل ليعلم من كان جاهلا او متجاهلا: عظم الدعوة التي قام بها الشيخ محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه الله ـ وانها ليست اقليمية، بل هي تجديد في الدين لجميع المسلمين، وان المثنين عليها كثر في اقطار العالم الاسلامي ومنهم من هو رفيع المستوى العلمي والاجتماعي كالكاتب ـ رحمه الله تعالى ـ

لعل في هذا المثال ما يشحذ همم الابناء على مواصلة مسيرة الآباء المقيدة بقيد الشرع الشريف الحكيم.

بقلم

د. عبدالسلام بن برجس آل عبدالكريم

د. صلاح الدين القاسمي
١٣٠٥هـ ـ ١٣٣٤هـ